قصة قصيرة

فخاخ العيون الجملية

عبد الحكيم قاسم

أنا كاتب. كتبت عدداً من القصص صادفت قبولاً من القارئين وتشجيعاً من النقاد، وأحسن استقبالي من كل مجمع يضم المثقفين والناس اللامعين، وكان خطأ. وكنت أعود كل مساء راجعاً إلى بيتي في شارع قطر الندى في حيّ إمبابة وتحت إبطي لفّة من الكتب والمجلات، وفي قلبي بقايا من أنس الأحاديث.

نعم. البيوت علت الشارع وبقي قاعه معتماً، والمداخل إلى المساكن بقيت دامسة الظلام، والسكة موحلة زلقة في كل الفصول، بما تكبّ فيها النسوان الماء الوسخ، يخرجن بالدلاء من الأبواب، لكن ابتسامهن، وحسن العيون، وتزاعقهن، وذيول الضحكات تثير. يعلمن بأن كلماتي تنشر في الجرائد وصوري. يصبّحن عليّ، والمساء بخير.

في المساء نقعد قدّام التليفزيون، أنا وأمي وأخواتي، في ضوء المصباح الكهربي، تلمع العيون السود ببريق السرور، ونحن متكؤن على الأرائك، ونبصق قشر اللب على البلاط العاري. نغرق في الضحك حين الفصول الفكهة، ويعلو صوتي مشيراً للممثل: «أنا أعرفه... يقابلني في المجالس.. يطري كتابتي كل مرة..!!» طرفت ناحيتي أزواج العيون، لما قلت مثل ذلك عن الممثلة الكبيرة المقتدرة، رفّت في عيون أمي وأخواتي لمحة من عدم التصديق. إنها ممثلة مجيدة، يطاوعها جسدها في فنها، يبقى مأموراً بكلمات دورها، يطول ويشمخ، يتثنّى ويتأوّد، وذراعاها تتوتران وتلينان مع دفق المشاعر، دفق الإيقاع للحن تحت سلطان العبارة. تشير بيديها حيث اتجهت عيناها، بكل السحر في عينيها، تعبر بهما عن الازدراء والكراهية والترفع، وتلتوي شفتاها. أي فتنة تبدو.. آه لو كتبت ما تقوله بكيانها العذب. في ظلمة غرفتي أرقد ولا تغمص عيناي، لا تريان إلا لعب الشخوص من قصصي، وإلا الممثلة القديرة، تتكلم بكلماتي، يقول لها الأب:

«سريت إليك هدأت المساء، وانصرفت عنك في الهزع الأخير، يوماً بعد يوم بعد يوم. وفيما بين ترقّبك قدومي عليك، ونظرك في أعقابي منصرفاً عنك، فيما بين الوقتين وقت ثالث عشت فيه الحياة غير مفروضة ولا مسنونة، غير مكتوبة ولا مشروطة، غير مبتسرة ولا منتقصة من أطرافها، يوماً بعد يوم بعد يوم. تخفّفت، فاستطعت، فرأيت. دهشت وعجبت وسررت، ثم نظرت، كان ذلك بعض موتي، لك وبك يا حبيبة..!».

وتتكلم هي، هي الحبيبة.

«لكنني الليلة جربت وقتاً ثالثاً، لا هو ترقبك قادماً ولا هو وداعك مفارقاً، وقت آخر، لا يؤذن به مؤذّن، ولا يحدثه تعاقب أفلاك، يستطيل ويعرض، وتتلاطم حول أمواجه، تأخذني بالظلمة والرعب، لا أعرف شكا ولا قراراً، أموت وأموت، لأعاني بلا نهاية الهول الكائن بين البقاء والفناء».

وينتهي حلم المساء، ولم أنم، مفتوح العينين، تأخذني الرعدة بارد الأعضاء غارقاً في عرقي. كتبت المسرحية. أخذتها للناس، قالوا إنها جيّدة. صررتها في لفّة أوراقي، تحت إبطي، وذهبت إلى السيدة، في المسرح، وكانت جالسة في صفوف المتفرجين. أنظر. لقد استدارت الخشبة حيث جلست. أتطلع إليها في علوّها، والناس جميعاً، وهي مضوأة بذاتها. قلت لها: «إنني كاتب..!» قالت «أعرف!» قلت من عمق السحر الذي أودى بي بإشارة بنانها وبسمة ونظرة: «كتبت مسرحية!» قالت: «تعال.. اقرأها لي.. أنا أسكن في الجزيرة!».

أعطيت ظهري للنيل، ومضيت نحو البناية. في المدخل خرج عليّ ناس، كل خبوة أبرزت رجلاً مشدوهاً، يتأملني مذهولاً. قلت: «أريد أن أرى السيدة!» حصل الذعر من الجماعة، يتنادون، يزعقون، يصرخون، يجرون من كل اتجاه، حتى ظهر زوجها. قال: «ماذا تريد؟» رجل أبيض، طويل، متعال. قلت: «أقرأ لها مسرحيّتي!» التوت شفتاه بمنطوقه. قال: «خذ ورقاتك وامض!» والتأمت حولي الحلقة من أنفارها، يوحِّدُ ملامح وجوههم الإصرار. مشيت محروساً بغضبهم حتى خرجت.

لا يفتنني زحام الشارع ولا يخترمني صخب الآلات، وصراخ الرعب. لا أنذهل عن وجهها المرسوم على جهامة السحب. يأخذني بالغموض من بسمته، والنظرة.